

مصطلح الحداثة بين قراءات ريتشارد رورتي وعبد الوهاب المسيري

The term modernity between the readings of Richard rotty and abdel wahab el messiri

عبد القادر فرجاني¹ صادق خشاب²¹ جامعة يحي فارس بالمهدية، الجزائر Ferdjaniabdou1991@gmail.com² جامعة يحي فارس بالمهدية، الجزائر ksadekmj@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2019/08/29 تاريخ القبول: 2019/09/30 تاريخ النشر: 2020/01/05

**ABSTRACT:**

ملخص البحث

Looking at the connotations of the term modernity leads us to also stand on the problems of these semantics and ambiguities related to linkages and bonds firmly linked to the debate on modernity, hoping to find in the diary of philosophers, researchers and thinkers what allows us to employ and exploit this diversity and difference. It is therefore our responsibility to recognize these differences in the meaning of this term, Our article comes in the form of a comparison between a Western reading represented by the American thinker "Richard Rorty" and the Egyptian Arab thinker "Abdel Wahab El-Messiri".

Keywords: the term modernity, term, Richard Rorty, Abdel Wahab El-Messiri, Western culture and Arab culture.

إن النظر في دلالات مصطلح الحداثة يحيلنا إلى الوقوف أيضا على ما تلفظه هذه الدلالات من إشكاليات والتباسات ذات صلات ووشائج وطيدة بالنقاش الدائر حول الحداثة أمليين في أن نجد في مفكرة الفلاسفة والباحثين والمفكرين ما يسمح لنا من توظيف واستثمار هذا التنوع والاختلاف. وفي ضوء هذا يأتي مقالنا في صورة مقارنة بين قراءة غربية يمثلها المفكر الأمريكي "ريتشارد رورتي" والمفكر العربي المصري "عبد الوهاب المسيري"، إلى ذلك سنحاول وضع مقارنة في فهم الحداثة التي تمثل مشروع ثقافي أو منظومة من وجهات النظر، وهي تمكين الباحث والقارئ من أفكار صحيحة ينطلق منها لفهم روح وفلسفة هذا المصطلح بين الثقافة الغربية والثقافة العربية.

الكلمات المفتاحية: الحداثة، المصطلح، ريتشارد رورتي، عبد الوهاب المسيري، الثقافة الغربية والثقافة العربية.

1. مقدمة:

يشكل المصطلح النقدي مبحثا مهما من مباحث المنظومة النقدية المعاصرة، كونه يعد آلية مهمة تساعدنا في إدراك وفهم تمثيلات المجالات الأدبية والنقدية وغيرها، إلا أن هذه الآلية لم تلبث أن عرفت إشكالات كثيرة تمس الهوية الفعلية للمجالات التي تعبر عنها، ويتناول بحثنا هذا، الموسوم بـ: مصطلح الحداثة بين قراءات ريتشارد رورتي وعبد الوهاب المسيري، العلاقة التي تربط الفكر الغربي بالفكر العربي، ووقع اختيارنا على مصطلح الحداثة باعتباره يمثل نموذجا

مجلة لغة - كلام / مختبر اللغة والتواصل / المركز الجامعي - غليزان (الجزائر)

¹ المؤلف المرسل: عبد القادر فرجاني

تتجلى فيه تلك الإشكالات، فكان الفكر الغربي مجسداً في قراءات المفكر الأمريكي ريتشارد رورتي، أما الفكر العربي فيمثله المفكر المصري عبد الوهاب المسيري بأفكاره النقدية .

الإشكالية:

كما سعت من خلال مقالتي هاته إلى الإجابة عن الإشكالية الرئيسية الآتية :

- ما الإشكالات التي تواجه مسألة الوعي بمصطلح الحداثة في قراءات ريتشارد رورتي و أفكار عبد الوهاب المسيري؟

وقد انطوى تحت هذه الإشكالية إشكالات فرعية مفادها: كيف تجلى مفهوم الحداثة في الفكرين الغربي والعربي ؟

وما هي أهم الطرائق والآليات التي نرصدها مصطلح الحداثة وندرسه ؟

وما التّأثيرات التي يستند عليها في مقارنة مصطلح الحداثة في الفكرين : العربي والغربي معا ؟

الفرضيات:

حاولنا الإجابة عن هذه الإشكاليات من خلال الفرضيات التالية : - إن إشكالية المصطلح هي إشكالية مصطلح الحداثة بالدرجة الأولى؛ لأنها تقوم على عملية التّقويم والمراجعة لجملة المفاهيم والقواعد المتضمنة في المجال النّقدي، وثمة دراسات عدة غربية وعربية بحثت في مسألة المصطلح النّقدي انطلاقاً من مقاربات ومناهج نقدية مختلفة، وقد أخذنا قراءات ريتشارد رورتي و عبد الوهاب المسيري كنماذج لدراستنا سعياً منا للإجابة عن الإشكالية المطروحة سابقاً، وتحقيق النتائج المرجوة من هذا البحث.

أسباب اختيار الموضوع:

لم يكن اختيارنا لهذا الموضوع بدافع التّبعية للفكر أو الثقافة الغربية، أو إلى تفضيل جانب عن جانب آخر، وإنّما كان قائماً على قناعتنا بضرورة المساهمة -ولو بالقليل- في إبراز الإشكالات والجدالات التي تثار حول قضية المصطلح النّقدي - بصفة عامة - ومصطلح الحداثة بصفة خاصة-، وتجدر الإشارة إلى أنّ هذا البحث لم يكن بإمكانه أن يدعي الشّمولية الكاملة في تناوله لهذا الموضوع سواء من حيث الاتساع أو العمق، فهو لا يطرح كل الإشكاليات المتعلقة بجدلية المصطلح النّقدي، ولا يتناول كل الطّروحات أو التّمفصلات الفكرية والنّظرية لعلاقة الثقافة العربية بالثقافة الغربية .

المنهج:

لقد استعنا في مقالتنا هاته، بمناهج متنوعة نذكر منها : المنهج الأركيولوجي / الجيانولوجي من أجل تتبع تاريخية مفهوم الحداثة، وكذا المنهج التحليلي لتحليل الظواهر النّقديّة المرتبطة بهذا المفهوم والوعي به وكذا المنهج المقارن في تحديد ماهيته وتصنيفه وتنميته، مع تتبع تأثيلها لرصد الإشكالات التي لحق به، مع تقصي أسباب تلك الإشكالات فهما وتفسيراً وتأويلاً .

1. المصطلح النقدي :

1.2 . مصطلح الحداثة: مفاهيم وتصورات

يتميز كل مجال من مجالات المعرفة عن مجال معرفي آخر بمصطلحاته ومفاهيمه الخاصة به التي تبرز ميزاته وخصوصياته، وهكذا يتحدد وجود هذا المصطلح أو ذاك من خلال المفاهيم التي يمثلها، ف « المصطلح كلمة أو مجموعة من الكلمات من لغة متخصصة علمية أو تقنية يستخدم للتعبير عن المفاهيم . وليدل على أشياء مادية محددة، ومن جانب آخر يمكن اعتبار المصطلح رمزا اتفاقيا لتصور ما، يتألف من أصوات منطوقة أو الشكل الذي تمثل به كتابيا أي عن طريق الحروف، أو يكون في صورة كلمة أو عبارة، وليست المصطلحات " مفاتيح العلوم " فحسب، بل خلاصة البحث فيها في كل عصر، ببدايتها يبدأ الوجود العلني للعلم، وفي تطورها بتخلص تطور العلم «¹، وهكذا فإن إشكالية المصطلح النقدي في الفكر المعاصر لم تقتصر على فرع دون فرع آخر، بل شملت كل مجالات المعرفة والثقافة، وكان للنقد والأدب نصيبا منها، فقد استعان كثير من النقاد والأدباء بآليات كثيرة في ترجمة النصوص المنقولة من اللغات والثقافات الأخرى، فظهر الخلط والعشوائية في النقل مثلما ظهر في الفلسفة (اللغة الفلسفية قديما) فلاحظنا تعددية واختلافات كبرى في تقويم المصطلحات المنقولة، وفي ظل هذا الوضع يشدد كثير من النقاد والمفكرين على ضرورة نحت مصطلحات جديدة و يبرزون إشكالات المصطلحات النقدية في الثقافة المعاصرة، و « أننا جربنا على عادتنا في استخدام المفاهيم المتداولة في الممارسة الإسلامية العربية حيث يستخدم غيرنا مفاهيم تحذو حذو المنقول الفلسفي الغربي حذو التعل بالتعل، وحتى كأنه لا مشابهة ولا مقايسة، إطلاقا بين مضامين هذا المنقول وبين ما جاءت به الممارسة الإسلامية من عندها»²، وفي مجال الأدب والنقد نجد القضية نفسها، هذه القضية التي ينص عليها المسدي حينما يقول : « اليوم لم يعد بوسع التاريخ أن يعيد نفسه في مجال النظرية النقدية، ولم يعد للسابق أن يفهم قول اللاحق بمجرد الاحتكام إلى المعايير « الإنسانية الخالدة » في الأدب، أو إلى المقاييس « العقلية الثابتة » في سلم النقد اليوم إذا عن السابق أن يفهم قول اللاحق تعين عليه أن يستدرك ما فاتته من مسافة فاصلة بين محطتين معرفيتين، وعليه أن يستوعب ما به صار اللاحق لاحقا، إذا ما قيس بالسابق : فالسابق واللاحق هما الآن ثقافيان أكثر مما هما زمنيان «³، و هكذا تبدو الممارسة التقييمية للمصطلحات في عصرنا، ملحة كثيرة ومثيرة لجدالات واسعة من وجوه ونواح كثيرة، لذا يصعب ضبط وتحديد معالمها .

يعتبر مصطلح الحداثة مفتاح للولوج إلى البحث العلمي الذي يتم وسمه بمجال النقد والأدب، ويشكل تصورات مهمة في الفعل النقدي ، لكن بالرغم من كونه مفتاح أي بحث علمي، إلا أنه عرف اضطرابا وضبابية في دلالاته، وامتد هذا الاضطراب إلى باقي مصطلحات هذا الفرع، ليظهر التنازع جليا بين معشر النقاد والمفكرين على الاختيار الأنسب للمصطلحات، وما تم ملاحظته أن النقاشات و الجدالات العقيمة التي أثرت حول مفهوم الحداثة متناقضة فيما بينها ومختلفة ومتداخلة، إذ « يعد مصطلح الحداثة من أهم المصطلحات النقدية التي دارت حولها اجتهادات كثيرة وهذا من خلال الخلفيات الإبيستيمولوجية الكامنة وراء تحديد هذا المصطلح الذي تتشابك فيه الأصول النظرية و الأطر التحليلية ومن هنا أصبح مصطلح الحداثة مجالا خصبا للدراسات النقدية بمختلف توجهاتها وهذا ما أكد عليه عددا كبيرا من النقاد العرب والغربيين في إطار دراستهم وتحليلهم لهذا المصطلح لأنه ينطوي على قدر كبير من اللبس والغموض والتناقض على المستوى الإبيستيمولوجي والأدبي الإبداعي»⁴، بهذا التصور عرف مصطلح الحداثة اضطرابا والتباسا كبيرا صعب على النقاد والمفكرين ترجمته، كونه يحوي أنساقا ضمنية ومضمرة تجعل المتلقي لها مضطربا غير قادرا على تحديد معالمها وضبط حدودها.

2.2. الحداثة : تاريخية المفهوم

ينسب التّأثيل أو المهاد الفعلي للفظ الحداثة إلى اللفظ اللغوي الأجنبي المشهور (Modernité) في اللغة الفرنسية إلى الجذر (Mode) « فكلّمة حداثّة modernité مشتقة من الجذر " mode " وهي الصّفة أو الشّكل، أو هو ما يبتدئ به الشّيء، فاللفظة العربيّة ترتبط بما له أكثر دلالة عما يقع أنّه يحدث، فالشّكل ليس هو المهمّ ليس هو الصّورة التي تبرز، فإنّ ما يحدث يتشّبه بواقعيته وراهنيتها »⁵، هكذا يقابل لفظ (الحداثة) في الفكر الغربي اللفظ الأجنبي (modernité) المستمد من الأصل أو التّأثيل اللاتيني (" Mode ") الذي يعبر عن الصّفة أو الشّكل المميز لفعل ما، لتكون الصّفة (حديث) (moderne) أقدم تاريخياً من اللفظ (حداثة Modernité)، وتقابل كلمة (حديث) في اللاتينية (Modernus) والتي ظهرت في أواخر القرن الخامس عشر، أي؛ في نفس القرن الذي استعملت فيه ضمن أبجديات اللغة الانجليزية كلمة حديث"، و التي « كانت في بادئ الأمر لتناقض القديم أو تنظر إليه على أنّه تجاوزه الزمن، ومنها اشتقت كلمة Modo التي تعني الآن أو مؤخراً، أي حديثاً و منذ عهد قريب، أي يطلق لفظ حديث على كل ما هو راهن ينتهي إلى الزمن الحاضر، و قد استعملت بهدف التّمييز بين الماضي الروماني الوثني، والحاضر المسيحي الذي لم يكن قد مضى زمن طويل على الاعتراف به رسمياً. وقد ازداد استعمال لفظ حديث في ما بعد للدلالة على الانفتاح والحرية الفكرية، أو بمعنى عامي للدلالة على الخفة والتّغيير لأجل التّغيير»⁶، وهكذا فالتّأثيل الفعلي لمصطلح الحداثة، انحصر قديماً في الدّلالة المعبرة عن صفة الحديث، لكن دلالاته لم تظل مستقرة وثابتة بل عرفت تغييرات جذرية في معانيها وتأثيراتها. قابل مصطلح الحداثة في الدّراسات المعاصرة المصطلح الغربي " Modernité " ذو الأصل الغربي، فلقد ظهر مصطلح الحداثة كلفظ متأخر، إذ إنّ اللّفظين الأجنبيّين (Modernisme-Modernité) قد ظهرا بصيغة صفة (الحديث Moderne)، ليكون ظهور - الحداثة كاسم متأخراً، حيث يفسر هذا الظّهور المتأخّر لها «خلو المعاجم من هذه اللفظة حتى نهاية القرن التّاسع عشر. فطيلة القرنين السّابع عشر والثّامن عشر لم يكن استخدام لفظ حديث موسعاً ولم يظهر شرح لمعنى الكلمة في المعاجم الفرنسيّة إلا باحتشام وباختصار شديد»⁷، إنّ التّأثيل لمصطلح الحداثة لدى النّقاد والمفكرين يتضمّن معطيات واضحة ومواقف صريحة في الدّفاع عنها من خلال بعض أفكارها، وشرط الانتقاد كذلك أمر مطلوب وضروري لا يمكن التّخلي عنه أو إهماله، فالحداثة وإن كانت إيجابية في بعض أفكارها، إلا أنّ بعض أفكارها الأخرى تكتنفها صفة السّلبية خاصّة فيما يرتبط بمسألة العقلانية والكونية والتّقدم التي انتقدت من طرف جمهور كبير من النّقاد والمفكرين، لتتمسك بما تحقّق من مكتسبات وإنجازات، وهكذا أمكن لنا إدراك موضوع إشكالية ترجمة مصطلح الحداثة في ضوء آراء النّقاد الغربيين و العرب من خلال نموذج قراءات ريتشارد روتي و عبد الوهاب المسيري الذي أخذناه بالدّراسة والتّحليل.

3. الحداثة بين الفكر الغربي والعربي

1.3. الحداثة في فكر ريتشارد روتي

تشغل الحداثة على تفكيك المعاني وتحليل الإشارات والرموز الفردية العمياء التي توارت نحو الإزاحة والانتها، وهذا ما أكّد عليه فريديريك نيتشه حين قال « ليس المهمّ هو إنتاج خطاب الحقيقة فراغاً في تقصي ما يتولد عن الخطابات من مفعولات الحقيقة »⁸، ليعود مفكر الحداثة (نيتشه) بالتّالي، إلى الموقع الذي هجاه بشدة . يحلّل العقل الغربي ويقدم لنا مفهوماً جديداً للحداثة عبر إعادة صياغة العقل بمعطياته الفكرية والمعرفية وفق تصورات ومعطيات جديدة .

لقد صار مصطلح الحداثة من المصطلحات التي عرفت تشاكلات كثيرة وجد معقدة مع الواقع النقدي المعاصر، إذ لوحظ أن التأثيل الفعلي له قد اختلط مع عديد الإشكالات التي أثرت في ظهوره وتأسيسه، هذه الإشكالات التي لا يمكن تفويت النظر إليها، على اعتبار أنها- إشكالات - تمس الهوية والكيان الفعلية لها، ولا ينكر عاقل أنها ولجت إلى الأطروحات النقدية، ومثال ذلك يتجسد في الحذر الذي يبدو على الفيلسوف رورتي إزاء الحداثة وما بعد الحداثة عندما يذهب إلى القول بأن « ارتيابه إزاء ما بعد الحداثة يجعلنا ننزع إلى الارتياح أيضا بخصوص الحداثة، وبشكل أخص إزاء فرجينيا وولف والزعيم بأن الطبيعة البشرية تغيرت بدءا من 1910⁹ » وهكذا فإن النقاد حسب ريتشارد رورتي بأمس الحاجة إلى التمييز بين ماهو حداثي وبين ما لا يمكن أن يكون سوى أفكار ووجهات نظر غير مؤسسة على ضوابط وأسس متسقة، لذلك إن عدم تحديدنا لمفهوم الحداثة سيحيلنا على جمود فكري يصاحبه غموض في المصطلح الذي يليه الموسوم بـ " ما بعد الحداثة " كون المصطلحين متلازمين يلي بعضهما الآخر، لتكون كلمة الحداثة غير محددة قد تبدي شيئا وتخفي رموزا وأنساقا ضمنية كثيرة، إضافة إلى أنه مصطلح مراوغ ومتقلب، يوجي بعزلة معرفية عن الماضي ترمي إلى التمسك بالحاضر والخروج من المعتاد إلى غير المعتاد ومن المعروف إلى غير المعروف وانتقالا من المعلوم إلى المجهول، وقد أخذ النقاد العرب يحاولون ترجمة مصطلح الحداثة، لكن بالرغم من كل هذا الجانب الإيجابي للمصطلح إلا أنه يجب علينا أن نفرق بين جملة كبيرة من المصطلحات التي يكتنف بعضها قدرا كبيرا من الإيهام الذي يشوش ذهن المتلقي ويجعله في مضطربا وحائرا.

شكّل هذا المفهوم للتقدم المجرد عن الأهداف والغايات النبيلة حالة كارثية في الفكر الأوربي وكذلك في الفكر العربي، وبالعودة إلى فلسفة ريتشارد رورتي الحداثية إذ نجد المفكرون والنقاد يتأرجحون في تصنيفها على أنها حداثية أو ما بعد حداثية، وهي في أعين البعض تصب في خانة الطّروحات المنتسبة إلى الحداثة بينما هي في أعين غيرهم تندرج ضمن آفاق ما بعد الحداثة فـ « أوجين غودهيرت Eugene Goodheart على سبيل المثال يعتبر فلسفته تعبيراً ما بعد حداثياً للبرالية»¹⁰، أو إن ما تتميز به فلسفة رورتي هي تلك الصبغة ما بعد حداثية التي طبعت بها الليبرالية فإن كان هناك فلاسفة ليبراليون معاصرون مرموقين أمثال جون راولس غير أنهم لا يوصفون مثلما هو الحال مع رورتي بأنهم ما بعد حداثيين، إذ كل واحد من الطرفين يسعى جاهدا ليؤكد تصوره ويثبت موقفه بالسند المنهجي والمعرفي الذي يجعل تصور الطرف الآخر متناقضا في معطياته كلية ؛ ومع هذا التردد الدائم في استخدام المصطلحات عند ريتشارد رورتي يشدد كثير من المفكرين على توخي الحذر في الاشتغال بمصطلحات من قبيل " الحداثة وما بعد الحداثة "، وينكرون على ريتشارد رورتي ترده الدائم في تبني مصطلح ما فما يلبث حتى يبحث عن بديل آخر له، ومن هنا فالتعامل مع فلسفة رورتي يتطلب نوعا من الحذر لأنه يصح أحيانا بأنه ما بعد حداثي في تصوره على النقيض مما كشف عنه سابقا لذلك « Postmodernes que nous ¹¹ répondre aux besoins des libéraux pour sommes

ينتقد كثير من المفكرين الحداثة وما بعد الحداثة لدى ريتشارد رورتي ويرون بأنه يتجرد من الموضوعية التي تغيب عن خطاباته، ويثبت بصورة واضحة أن ادعاء الدلالة لا يعني أن المصطلح دال بالفعل، فالنخبة من المثقفين بفلاسفتهم والمشتغلين بالفلسفة، انطلاقا من فكرهم التنويري والحداثي وبحكم احتكاكهم بزملائهم في الدول المتقدمة والحداثية ووعيمهم بحركية العولمة والتكتلات الإقليمية والجهوية وتبصرهم العميق بآفاق ما بعد الحداثة ورهاناتها أدركوا هذه الحقيقة في التعامل مع فلسفة رورتي .

إن الغموض الذي اكتنف مصطلح الحداثة أفرز غبنا كبيرا في ترجمتها سواء أكان ذلك منوطا بلفظة الحداثة أو بألفاظ أخرى على شاكلتها من قبيل: الحداثيّة أم إلى العصرية والعصرانية. فغالبا « ما يحدث نفس الشيء في استخدام كلمتي Postmodernisme و Postmodernité بنفس المعنى وحتى في ترجمتهما إلى العربية نجد لفظا واحدا هو ما بعد الحداثة يتداول ليدل على الكلمتين الأجنبيتين علما بأن بعض من ترجموا الكلمتين أطلقوا لفظ ما بعد الحداثة على Postmodernité ولفظة ما بعد الحداثيّة على Postmodernisme كنوع من التمييز بينهما ¹² هناك كثير من المفاهيم تتداخل مع لفظ الحداثة ما يجعلها تأخذ محل النموذج البديل أو الشارح أو حتى المماثل، وهي في واقع الأمر لا تمثل إلا صورا ثانوية وغير مهمة تنبثق من الممارسة الحداثيّة نذكر منها: الحداثيّة-العصرية-العصرانية، وهناك تعريفات أخرى لا تبتعد كثيراً عن هذه المعاني، فمصطلح الحداثة (Modernity) يبدو مختلفا تماما عن لفظ التحديث (Modernization) في اللغات الأجنبية، إذ الحداثة (Modernity) موقف فلسفي عقلي يعبر عن مسألة المعرفة، أما التحديث (Modernization) فيشكل ممارسة التّقنية والمخترعات الحديثة التي توظف هذه التّقنيات دون إحداث تغيير عقلي أو ذهني للإنسان تجاه الكون والعالم. ليصير التحديث مظهرا من مظاهر الحداثة وتابعا لها، أما الحداثة فهي أعمق من ذلك بكثير لذلك فهي غامضة في مجملها، ف « لطالما استغلق علينا معنى الحداثة والتّبس، لذلك فإنّ ردّ الفعل المعروف باسم (ما بعد الحداثة) يظل هو الآخر مستغلقاً و بكيفية مضاعفة» ¹³، هكذا نجد معنى الحداثة يحتل محلا رئيسيا في الوقت الحالي ضمن مجال المعاني الغامضة، والكلام في هذا المعنى كثير، لنذكر أن الحداثة عند منتجها - فضلا عن المتلقّي - عبارة عن مفهوم، غامض، مستعصٍ على الإمساك، رافضي، للتعريف النّاجز، لتعدد وجهات نظر وتصورات النّقاد والمفكرين بين مؤيد ومعارض لها، من منطق ما ينتج عن التّرجمة من لغة إلى أخرى من التّباس وضبابية في ضبط ماهيتها وأصولها، هذا كله أفضى بمصطلح الحداثة إلى معارضة من طرف النّقاد والمفكرين الغربيين في حد ذاتهم، إذ « هو أقبح من ما ينطقه النّاطق في اللغة العربية، ونحن لا نقبل بهذه التّرجمة الهجينة الثّقيلة مادام العرب عرفوا هذا المفهوم وتعاملوا معه » ¹⁴، إن ضبط مفهوم الحداثة لا يتأتى في ظل غموضه وضبابيته، فما هو معروف في دلالات المصطلحات والمفاهيم أنها تتغير بحسب المدلولات التي تعطى لها من طرف مستعملها حتى وإن بدا المصطلح في نشأته محدد المعنى لكنه ما يلبث أن يتخذ معان أخرى تبعا لاستعمالاته المتنوعة والمتكررة في ميادين مختلفة، سواء في مجال الفن أو الهندسة أو الفلسفة وهلم جرا التي تفقده بريقه وتكسبه دلالات متباعدة في محتواها. ومن هذا المنظور تكون المفاهيم والمصطلحات خاضعة لقاعدة التّطور والتّغير والاختلاف، ذلك أن هذين المفهومين (الحداثة وما بعد الحداثة) ليس «موضع خلاف فحسب، بل هو أيضا متضارب ومتناقض داخليا. فالحداثة وما بعد الحداثة ليست أشياء يمكن أن نثبتها في مكانها مرة واحدة لكي نعاود استعمالها لاحقا بكل هدوء » ¹⁵. لنجد كثير من الكتاب الغربيين في نصوصهم يفضلون مصطلحا على حساب مصطلح آخر، مثلما هو الحال بالنّسبة لرورتي حينما يفضل استعمال مصطلح الحداثة بدلا من مصطلح ما بعد الحداثة، قائلا « أشعر بعجز التّام عن اكتشاف نوع الموج العاتي المفاجئ الذي أعلن عنه ليوطار وآخرون حينما أصبحنا ما بعد حداثيين، (وهو مصطلح ما بعد الحداثة) و يبدو لي أن لا فائدة كبيرة من ورائه » ¹⁶ هكذا يبدو التّناقض جليا في توجه رورتي في ضوء تبني مصطلح الحداثة من عدمه وتفضيل مصطلحات أخرى عليه، لفتح المجال لإدراك توظيف مصطلح في الثّقافة العربيّة.

2.3 الحداثة في فكر عبد الوهاب المسيري

إن المتصفح لدفاتر المدونة الفكرية النّقدية العربيّة المعاصرة، يلفها قد عانت كثيرا من التّبعيّة والرتابة والتّوجه الأحادي وقلة الإلمام بالإنتاج الفكري والتّقدي رغم وفرة، إذ بقيت أسيرة التّكرار والاجترار لمنجزات الثّقافة الغربيّة،

وقد أسهم هذا الاجترار في تعميم الوضع على تفكير المفكر العربي، ومن بين أهم أسباب هذا التعميم هو خلق مركزية عربية تتجاوزها أطراف شرقية وغربية ضمن ما يصطلح عليه (مركزية مشرقية مغربية)، الأمر الذي دفع ببعض مثقفينا إلى نهج سبل جديدة في التعاطي مع التخصص وبالذات النقدية منها، فعبد المالك مرتاض يتساءل: « ما موقفنا من الحداثة ؟ وهل يجب أن نظل عميانا صمانا عما يجري في التّوادي الأدبية العالمية من تطور في الرؤية والمنهج لدى تناول نص أدبي ما، وهل المنهج التّراثي من حيث هو تقنية عتيقة يظل صالحا أمام تقنيات العصر المذهلة؟ »¹⁷، لقد دفعت الأسئلة العديدة إلى البحث والتّقصي عن بديل يمكنه أن يضع الدّراسات النّقدية العربية وغيرها في المرتبة التي تليق بها في ظل ما يشهده الفكر الغربي من تعدد الأشكال النّقدية من تعدد وكثافة مصطلحاتها ومفاهيمها .

لم يتكل المثقف العربي يوما على المناهج الغربية، بل حاول أن يفهم كيف اهتدى الغرب إلى ما اهتدوا إليه فراح يبحث في الأصول وهذا ما تجسد في منهج المفكر المصري عبد الوهاب المسيري، الذي ذهب إلى الاعتقاد أنّ مصطلح "الحداثة" الوارد من الثّقافة الغربيّة « ليس بريئا، خاصّة أن الاعتقاد السائد لدى الكثير من النّخب العربيّة أنّه محايد ومحدّد المعنى والدّلالة، وأنّه ليس له تاريخ على الإطلاق، أو أنّ تحولاتها لا تختلف من حضارة لأخرى، أو من حقبة تاريخيّة لأخرى، وأنّ هناك حداثة واحدة، ونحن عادة ما نعود للمعاجم الغربيّة لنعرف المعنى لأيّ مصطلح، وما المقصود منه على وجه الدّقة، وبعد أن نقرأ كلّ التعريفات تصبح الإشكاليّة التي تواجهنا هي كيف نترجمه؟، دون أن نخبرها أو أن نعرف مدى مطابقتها للواقع »¹⁸ ذلك أن خلف كلّ مصطلح و مفهوم بعدا معرفيا خفيا يختبئ خلف المعنى الظّاهري المعروف، ليجتاح إدراك كنهه منا إلى كثير من البحث والاشتغال النّقدي الدّقيق .

و يرى المسيري أن فكرة الحداثة ما زالت فكرة غامضة ومهمة، تتباين في داخلها وتتعارض وجهات النّظر بين الأوروبيين أنفسهم أصحاب هذه الفكرة، وينقسمون حولها ويتنازعون عليها، ولم تتحدد لها هوية واضحة توسم بها، وتفهم من خلالها ف «هذه هي الحداثة التي تبنّاها العالم الغربي والتي تجعله ينظر إلى نفسه على اعتبار أنّه هو (وليس الإنسان والإنسانية) مركز العالم، وأن ينظر إلى العالم على أنّه مادة استعماليّة، يوظّفها لصالحه باعتباره الأكثر تقدّمًا وقوّة، ولذا فإنّ منظومة الحداثة الغربيّة هي منظومة إمبريالية داروينيّة، وهذا هو التّعريف الحقيقيّ للحداثة كما تحقّقت تاريخيا»¹⁹، يجدر القول إلى أنّ المسيري رصد العديد من مظاهر الحداثة الغربيّة التي يعدها وجه من أوجه الحداثة الدّاروينيّة، واهتدي إلى أن المفكرين العرب يخلطون في استعمال مصطلحات من قبيل التّحديث، الحداثة وما بعد الحداثة، ويقترح التّمييز بين هذه المصطلحات المتباينة :

1- مصطلح التّحديث في فكر المسيري : « تقع حقبة التّحديث منذ عصر النّهضة في الغرب، وما يسمّى (عصر الاكتشافات) حتّى الحرب العالميّة الأولى وهي مرحلة التّراكم الإمبرياليّ والمادية البطوليّة»²⁰، انطلاقا من هذا النّموذج الأوّل (لفظة تحديث)، يمكننا القول، أن تشكيل الألفاظ لا يخضع فحسب إلى مجالات الدّلالة اللغوية وحدها، بل كذلك إلى سياقات التّداول والاستعمال التي تتحدد معها أيضا معاني الألفاظ فتتطور وتتشعب إلى ميادين لم تكن أصلا موجودة فيها. وهكذا تنتقل من مجال الأدب مثلا إلى ميدان العمارة أو الدّين أو الفن أو تمتد من مضمار الفلسفة إلى التاريخ والاجتماع دونما ضبط أو تعيين في مرات كثيرة.

2- مصطلح الحداثة عند المسيري : « هي الإدراك المأساوي لفشل المشروع التّحديثي، وإمكانية معرفة الإنسان قوانين الطّبيعة والسيطرة عليها »²¹، إزاء هذا الوصف يحذر المسيري من اختلاف وجهات النّظر وتعددتها بما يجعل

الإحاطة بدلالة الحادثة ومضامينها الفكرية والمادية، أمرا متعذرا ومع ذلك لا مناص لنا من الاقتراب الحذر واليقظ صوب هذا المفهوم بغية تفكيك معانيه ورموزه المشكلة لصورته العامة.

3- مصطلح ما بعد الحادثة في تصور المسيري :

« في هذه المرحلة رضخ الإنسان الغربي تماما لإدراكه إخفاق مشروع التحديث، ولكنه بدلا من أن يحتج ويتمرد فإنه يقبل بل ويرحب بهذا الإخفاق و التراجع دل أن يتدارك أخطاء الماضي ويعيد قراءة شروعه التحديثي وتصحيح مساره، والبحث عن الحلول داخله، فإنه بكل بساطة يعلن عن تمرده واستمراره في التخلّص والتحرّز من الإله بل وانتقل إلى ما هو أخطر وهو إلى التحرّز من مركزية الإنسان»²²، فكر ما بعد الحادثة هو نموذج يحاول الهروب تماما من الميتافيزيقا ومركزية الثبات حتّى يغرق كلّ شيء في الصّيرورة، وبذلك يختفي المركز وتمعى كلّ الثنائيات. وبعد عرض هذا التحليل لمصطلح الحادثة والتحديث وما بعد الحادثة وبيان أهمّ مميزاتهم التي ستشكل لدى المسيري منطلقا لبيان آفات المشروع التحديثي الغربي، يمكن القول أن هذه النماذج المصطلحية الثلاث (التحديث - الحادثة - ما بعد الحادثة) حسب عبد الوهاب المسيري تتحكم فيها المصادرة على المطلوب (بناء استدلال منطقي على مقدمات غير صحيحة)، فإذا كان التحديث مرحلة التراكم الامبريالي والمادية البطوليّة، وهذا أمر مشروط، لكن عدم خضوعه كلفظ في تشكيله إلى مجالات الدلالة اللغوية وحدها، ولا إلى سياقات التداول والاستعمال التي تتحدد معها أيضا معاني الألفاظ يجعله يتطور ويتشعب إلى ميادين متعددة لم تكن أصلا موجودة قبل ذلك، إذ كيف يتحقق التعقيد اللفظي له، ليتم تجاوز مصطلح التحديث والحادثة إلى ما بعد الحادثة التي تمثل نموذج يحاول الهروب تماما من الميتافيزيقا ومركزية الثبات حتّى يغرق كلّ شيء في الصّيرورة، وبذلك يختفي المركز وتمعى كلّ الثنائيات، وبالفعل نموذج -تصنيف المصطلحات الثلاث - هو دورة ومرحلة انتقالية من وضعيات تعارضية أولية (تحديث وحداثة) إلى نموذجين متعارضين ثانيا (الحادثة وما بعد الحادثة) فالنموذج الأول مرحلة انتقالية في مسار العملية التحديثية أعلن فيه الإنسان الغربي لأوّل مرّة عن تراجع إمكاناته الوجودية أمام مختلف الإشكالات والأزمات الناجمة عن منظومة مرحلة التحديث، ممّا شكّل صدمة لديه التّ به إلى مرحلة أخرى جديدة، أما الأخير فهو فعل مُقنع ومُعقد (غير مُباشر)، ف(الحادثة) و(ما بعد الحادثة) وضعيات جامعة ل(الحادثة البعيدة، والحادثة، والحادثة والعصرانية بطريقة ضمنية في مُجملها). وهكذا يبدو تشديد عبد الوهاب المسيري على معالجة مصطلح الحادثة أكثر من باقي المصطلحات، فمن خلال التّحديد الغربي للمفهوم يتّضح أنّ « جوهر الحادثة الغربية هو تنميط الواقع (الطّبيعة والإنسان)، وفرض الأحادية المادية عليه، بهدف إدارته وتوظيفه على أحسن وجه باعتباره مادة استعمالية. فالأحادية المادية تعبر عن منحنى إدراكيّ ماديّ حسيّ، يستوعب الواقع من خلال مقولات إدراكية وتحليلية وتصنيفية مادية، واختزال الواقع بأسره إلى مستوى ماديّ واحد لا يعرف أيّ شكل من أشكال الثنائيات»²³. فالحادثة إذن: في المجال التداولي الغربي تعني حقيقة إزاحة كلّ ما له علاقة بالقيمة الأخلاقية. الروحية لصالح المادة المتضمنة كلّ الخصائص البيولوجية الإنسانية كالتركيبية الجنسية والجسمانية. لتصبح التكنولوجيا هي الآلية التي توسّل بها الإنسان الغربي لتحقيق مشروعه الحداثي، وهكذا، فالمصطلح في اللغة العربية واللغات الأجنبية تتقاسمه عديد النّقاط، تمكنا من إجراء مقارنة بسيطة بين معاني النّاحية الاشتقاقية فيما دلت عليه لفظة الحادثة ومشتقاتها بحيث يمكننا الوقوف في وضعية الابتداء على بعض النّماذج :- جذر لفظة الحادثة في العربية يرجع إلى الفعل حدث وليس كما هو الحال في اللغات الأجنبية الذي يرجع إلى الصّفة حديث. وهذا ما أبرزه مطاع صفدي في تركيزه على فكرة مفادها أن اللفظة العربية « للحادثة تأتي أصلا من حدث. في حين أن لفظة الحادثة الغربية : /Modernité/، مشتقة من الجذر Mode وهي الصّيغة أو الشّكل أو ما يبتدئ به الشّيء»²⁴.

-تتصل لفظة الحداثة العربية من خلال الجذر حدث بمدلولات الحدوث و الحدث، وهي في فاللفظة العربية ترتبط إذن بما له « اعتقادنا غير متضمنة في لفظة الحداثة باللغات الأجنبية أكثر دلالة عما يقع، إنه ما يحدث. فليس الشكل هو المهم. ليس هو الصورة التي تبرز. فإن ما يحدث يتشبه أساسا بواقعيته. كل ما يحدث يقع في الزمان»²⁵، من هذا المنطلق تتحول الحداثة من مجرد نعت أو صفة توصف بها أشياء الحياة الراهنة بأساليبها ومنتجاتها أشكالها وموادها إلى رؤية شاملة لمناحي الحياة، بل هي نظام فلسفي متكامل يقترب تارة من العصور الكلاسيكية القديمة فيتأخم فنونها ونظمها السياسية والاجتماعية، علومها وأدائها بما يحدد نظرة تكامل وانسجام، ويتعد عن تلك الحقب الماضية التي رأى فيها البعض ورغب في قطيعة الحداثة معها نظرا لاختلافها معها بدءا من المدلول اللغوي للحداثة الذي يعني الجديد المناقض للقديم، لتكون وضعية الختام مجسدة في المفكرون والنقاد العرب المطلوب منهم اليوم بالسعي إلى لعب دور تاريخي وطلائعي لصالح مستقبل أبناء الثقافة العربية، مستقبل آمن ومزدهر وهذا ما نجده في منهج عبد الوهاب المسيري الذي يرفض أن يبقى تابعا دائما .

5-خاتمة:

وختاما فإنّ المسيري أوصله حسّه النقدي إلى إدراك وفهم عمق فجوة الإشكاليات الغربيّة المعاصرة عامة وفلسفة المفكر الأمريكي " ريتشارد رورتي " بصفة خاصة، والتي ما هي إلّا مآل لزمان الحداثة بمختلف من خلال مقوماته بدءا من المبادئ إلى المجالات انتهاء بالتّحيزات و ما نجم عنها من آفات إنسانية كونية، فمادامت الحداثة الغربية حسب المسيري قد عبّرت عن عدم صلاحيتها، وأهليتها لأن تكون أنموذجا يحتذى به في العالم العربيّ والإسلامي، نظرا لمآلاتها الهدامة، وسلبياتها التي دمّرت وقضت على الإنسان نهائيا، يقترح بديلا للخروج من أزمة المصطلح النقدي ويمكن إجماله كالآتي:

- لحظة معالجة مصطلح ما : العودة إلى تأثيله اللغوي في أصوله وبداياته الأولى .
- إن المصطلح الغربي في روحه وفلسفته يحمل إيديولوجية الثقافة التي احتضنه لذلك وجب الحذر لحظة التعامل معه، كما أكد على ذلك عبد الوهاب المسيري في تعامله مع مصطلح الحداثة وما بعد الحداثة، ومن هنا، يبدو أن الاهتمام بهذه الإشكالية متأخر جدا، حتى الكتابات التي ترصد هذه الظاهرة ما تزال معدودة و قليلة جدا. فحتى هذه اللحظة لم تقترب الكتابات العربية كثيرا صوب فكرة الحداثة وما بعد الحداثة التي شغلت وما زالت تشغل اهتمامات الفكر الغربي، ليتبين بأن عبد الوهاب المسيري يرفض الحداثة ما بعد الحداثة في رؤيتها الغربية، لما لها من نتائج وخيمة على الفكر العربي عامة .

الهامش:

¹ البوشيخي، الشاهد: مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان و التبيين للجاحظ ، ط 2، دار القلم للنشر والتوزيع، 1995، الكويت، ص:13.

² عبد الرحمن طه: سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، ط1، بيروت المركز الثقافي العربي 2002، لبنان، ص:30.

³ المسدي، عبد السلام: الأدب وخطاب النقد، د.ط، بنغازي، دار الكتب الوطنية، 2004، ليبيا، ص:10.

⁴ محي الدين، إسماعيل: الفكر المعاصر ط1، دار الشؤون الثقافية، 1989 بغداد، ص:261.

⁵ Manteau à Neyveli , Grand Larousse Universel, Tome 10, (Paris:Larousse, 1997) , p.7009.

- ⁶ لالاند أندريه: موسوعة لالاند الفلسفية، تر: خليل أحمد خليل، ط.2، مج.2 (2001)، بيروت، منشورات عويدات، لبنان، ص:822.
- ⁷ جديدي محمد: الحداثة وما بعد الحداثة في فلسفة ريتشارد روتي ط.1، 2008، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ص:96.
- ⁸ عصفور جابر: معنى الحداثة في الشعر العربي المعاصر، د.م.ج، د.ع، مجلة فصول 1984، القاهرة الهيئة العامة للكتاب، ص:363.
- ⁹ Richard Rorty, Science et solidarité, Science et solidarité: La vérité sans le pouvoir pouvoir, traduit de l'américain published, 1999, p.168.
- ¹⁰ Eugene Goodheart, «The Postmodern Liberalism of Richard Rorty», in, Partisan Review, 2, 1996, Volume LXIII Number 2, p.223.
- ¹¹ Richard Rorty, Objectivisme, relativisme et vérité, traduit de l'anglais par Jean Pierre Cometti, Paris, Presses universitaires de France, 1re édition, 1994, p.226.
- ¹² Madan Sarup, An Introduction Guide to Post-Structuralism and Postmodernism, (Athens: The University of Georgia Press, Second edition, 1993), p.131.
- ¹³ الشيخ محمد والطائي ياسر: مقاربات في الحداثة وما بعد الحداثة، د.ط، (1996)، دار الطليعة، بيروت، ص:10.
- ¹⁴ مصطفى كحل: مقال : الأئسنة و التّأويل في فكر محمد أركون، عبد المالك مرتاض، التّأويلية بين المقدس و المذنب، مج.29، ع.1 مجلة عالم الفكر، (د.ت) الكويت، ص:263 .
- ¹⁵ مي غصوب: ما بعد الحداثة: العرب في لحظة فيديو (1992)، دار الساق، بيروت، ص:10.09.
- ¹⁶ Richard Rorty, Philosophy and social hope, (New York, Penguin Books) first Richard Rorty, Science et solidarité, Science et solidarité: La vérité sans le pouvoir pouvoir, traduit de l'américain par J.- P. Cometti, (Combas, Editions de l'Eclat, 1990), p.11.
- ¹⁷ مرتاض عبد المالك: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي) لمحمد العيد آل خليفة (1992)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص:09.
- ¹⁸ المسيري عبد الوهاب: دراسات معرفية في الحداثة الغربية، ط.1 (2006)، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ص:34.
- ¹⁹ المرجع نفسه، ص:35.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص:10.
- ²¹ المسيري عبد الوهاب: اللّغة والمجاز بين التّوحيد ووحدة الوجود، ط.1 (2002)، دار الشروق، مصر، ص:233.
- ²² المرجع نفسه، ص:233.
- ²³ عبد الوهاب المسيري: التعددية والتّرشيد العلماني، مجلة قراءات سياسية، ع. صيف، 1995، بيروت، ص:105.
- ²⁴ صفدي مطاع: نقد العقل الغربي- الحداثة ما بعد الحداثة (1990)، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، ص:223.
- ²⁵ المرجع نفسه، الصّفحة نفسها .